مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 16، العدد 62 (ربيع 2005)، ص 147

الجغرافي المقدسي

ونص الهوية الفلسطينية!

زكريا محمد*

يعاني الباحثون في تاريخ الهوية جرّاء نقص بيّن في النصوص. فهم لا يكادون يعثرون على نص واضح يتحدث عن هوية فلسطينية قبل نهاية القرن التاسع عشر، أو حتى قبل بداية القرن العشرين. وهذا النقص يساهم في تقبل الفكرة الصهيونية الشائعة التي تقول إن الهوية الفلسطينية كانت في الأساس، ردة فعل على الحركة الصهيونية. وهو ما يعني أنها وليدة هذه الحركة، وإن كانت ولیداً مضاداً لها. وعليه، يقال عادة إن الهوية الفلسطينية حديثة التكوين، وإنها تنتمي إلى أوائل القرن العشرين, وحين تجري محاولات لإعطاء هذه الهوية بعداً زمنياً أعمق (كميرلنغ مثلاً) يشار إلى الانتفاضة على حكم إبراهيم باشا في سنة 1834 باعتبارها بدايات تكون وعي وطني فلسطيني عام. فقد شملت هذه الانتفاضة فلسطين كلها تقريباً، على الرغم من نوازعها الطائفية الناجمة عن سياسة إبراهيم باشا. أمّا رشيد الخالدي، فقد حاول أن يصل إلى أبعد مدى ممكن كي يجد جذور هذه الهوية الأولى في انتفاضة القدس سنة 1701. وكنت أشرت في كتابي (″قضايا الثقافة الفلسطينية″، رام الله: منشورات مؤسسة مواطن، 2002) إلى أن تاريخ الهوية الفلسطينية هو أكثر جوانب الحياة الثقافية الفلسطينية تلوثاً بالنص الصهيوني. فنحن، في الإجمال، نردد ما يقول هذا النص عن هويتنا وتاريخها. ولعل هذا هو سر فشلنا في العثور على نصوص تؤدي إلى إضاءة أفضل لتاريخ الهوية الفلسطينية. ذلك بأنه إذا كانت الهوية الفلسطينية حديثة جداً، فمن العبث البحث عما يؤيد وجودها في المصادر الكلاسيكية العربية.

لكنني أعتقد أن هذه النظرة إلى الهوية الفلسطينية مغلوط فيها تماماً. إذ لدينا تأكيد يرقى إلى القرن الخامس قبل الميلاد، على الأقل، في شأن وجود كيان يدعى فلسطين. فقد حدد هيرودوتس هذا الإقليم بحدوده المعروفة حالياً تقريباً، وسمّاه فلسطين. يقول في سياق حديثه عن الغزو الفارسي لبلاد اليونان: ″وقد جهز الفينيقيون وسوريو فلسطين ثلاثمئة سفينة...″، ويضيف: ″وهذه الأمة تبعاً لما تقوله عن نفسها سكنت قديماً على البحر الأحمر، حيث ما زالوا يقيمون. وهذا القسم من سورية، وكل المناطق الممتدة من هنا إلى حدود مصر معروفة باسم فلسطين.″[1]

ويقول في فقرة أُخرى: إن هذه البلاد، الممتدة من أرض الفينيقيين حتى حدود مدينة غزة، يسكنها السوريون الذين يسمون الفلسطينيين.

إذاً، فالمنطقة من حدود فينيقيا إلى حدود مصر هي إقليم واحد يدعى فلسطين. وهيرودوتس يدعو سكانها باسم سوريي فلسطينيين، أو سوريي فلسطين تمييزاً لهم من باقي سكان سورية. وهؤلاء السكان، كما نعلم، هم الفلست أو الفلسط، أي الفلسطينيون القدماء، الذين أعطوا هذا البلد اسمه وسمته الإثنية المميزة داخل إطار سورية الكبرى. وقد ظل هؤلاء القوة الأهم في فلسطين منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد حتى حدود القرن الخامس قبل الميلاد، حين تخلخل استقلالهم بفعل الضربات الأشورية والبابلية والفارسية المتتالية. (وقد أفردت للفلسط وأصلهم كتاباً، صدر هذه السنة عن دار الشروق في رام الله بعنوان ″نخلة طيء: كشف لغز الفلسطينيين القدماء″، يبرهن على أنهم ساميون من قلب الجزيرة العربية، ويدحض فكرة أصلهم اليوناني، مبيناً أن اسمهم ورد في نقش عقرون الذي اكتشف سنة 1996، وهو أول نقش فلسطيني جدي يعثر عليه حتى الآن). وعليه، ففلسطين الرومانية لم تكن اختراعاً من روما، وإنما كانت أخذاً لوضع قائم بدأ يتبلور منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد على الأقل. وإقليم متبلور بهذا القدر لا يمكن إلاّ أن يؤثر في صناعة هوية ساكنيه.

أمّا فيما يتعلق بفكرة ″الأرض المقدسة″ ومدى تأثيرها في تثبيت الإقليم الفلسطيني، فمسألة بحاجة إلى البحث فيها. إذ يبدو لدى بعضهم، أحياناً، أن فلسطين هي وليدة فكرة الأرض المقدسة. لكنني لا أتفق مع هذا الرأي. ويخيَّل

إليّ أن هذه الفكرة دعمت فكرة الإقليم في مراحل، ثم غيّبتها في مراحل أُخرى، تبعاً للمدى الذي كانت تبلغه حدود الأرض المقدسة. وقد ساهمت هذه الفكرة، بالتأكيد، في تثبيت القدس كمركز مستقر لا ينازع لهذا الإقليم، وبالتالي وضعت لهذا الإقليم محوره، لكنها لم تكن دائماً عاملاً مساعداً في تثبيت حدود الإقليم. فالأرض المقدسة كانت تشمل في بعض الأحيان معظم شرق الأردن، وأجزاء من سورية ولبنان وغيرها. والموضوع برمته بحاجة إلى النقاش.

أمّا فيما يخص المصادر العربية القديمة، فنحن نعلم أن العشرات من الشخصيات الثقافية والسياسية في الفترة العربية – الإسلامية نُسبت إلى هذا الإقليم، إذ وُصف الواحد منهم بالفلسطيني، الأمر الذي يعني أن الإقليم كثيراً ما كان يؤخذ كوحدة واحدة. وهذا يعني أن الهوية الفلسطينية الحديثة قامت على أساس من هوية تقليدية موغلة في القدم، كما هي الحال في مصر أو العراق مثلاً. ففي هذين البلدين، تم تحديث هوية قديمة ذات جذور تاريخية، لا صناعة هوية حديثة من لا شيء. وهذا ما نعتقد أنه حدث في فلسطين. إذ لم يتم الانتقال من هويات محلية لا رابط بينها إلى هوية واحدة عامة فلسطينية بفعل ضغط الحركة الصهيونية، هكذا ومن دون مقدمات.

ولدينا نص واحد، على الأقل، يثبت أن هوية فلسطينية محددة كانت موجودة منذ ألف عام في أقل تقدير. هذا النص كتبه واحد من أعظم مثقفي فلسطين على مر العصور، وواحد من نخبة الثقافة العربية في عصرها الكلاسيكي؛ إنه الجغرافي المقدسي في كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم". وهو نتاج رحلات جغرافية قام بها صاحبه في نهاية القرن العاشر الميلادي، وشملت مناطق عربية وإسلامية. ينقل المقدسي في نصه، خلال وجوده في بلاد فارس، حواراً ممتعاً دار بينه وبين بنائين شيرازيين:

وجلست يوماً إلى بعض البنائين، أعني بشيراز، وأصحابه ينقشون بمعاول وحشة (= سيئة)، وإذا حجارتهم على ثخانة اللبن، فإذا اعتدلت قدروها، ثم خطوا خطاً بالمعول (= الشاكوش) فربما انكسرت البلاطة، فإذا اعتدلت أقاموها على حدها (= وضعوها في البناء على طرفها).

فقلت لهم:

لو اتخذتم مسفنة [= إسفيناً، إزميلاً] وربّعتم الأحجار.

وأحكيت لهم مسائل في البناء.

فقال لي الأستاذ:

– أنت مصري؟

قلت:

– لا، أنا فلسطيني.

قال:

– سمعت أن عندكم تُخرَّم الأحجار كما يُخرَّم الخشب.

قلت:

– أجل.

قال:

– أحجاركم لينة ولصناعتكم لطافة." (3)

هذا النص المفاجئ، والخاص جداً، يدحض فكرة حداثة الهوية الفلسطينية. فههنا نجد مثقفاً مقدسياً من الطراز الأول يعلن، ومن دون لعثمة، أنه فلسطيني! هذا مع العلم أن هذا المثقف لم يعان جرّاء نقص الهويات قط. فهو ذاته يعلن في كتابه ما يلي:

ولقد سُمّيت بستة وثلاثين اسماً، دُعيت وخوطبت بها: مقدسي وفلسطيني ومصري ومغربي وخراساني وسلمي ومقرئ وفقيه وصوفي وولي وعابد وزاهد وسياح وورّاق ومجلد وتاجر ومذكّر وإمام ومؤذن وخطيب وغريب وعراقي وبغدادي وشامي وحنيفي ومتؤدب وكرَي ومتفقه ومتعلم وفرائضي وأستاذ وداشموند وشيخ ونشاسته وراكب رسول، وذلك لاختلاف البلدان التي حللتها، وكثرة المواضع التي دخلتها." (3)

وهكذا فقد كان يحوي في ذاته كل الهويات التي كان من الممكن أن يدمغ بها المرء في عهده في فلسطين؛ فهو مقدسي، فلسطيني، شامي، حنفي، وراق... إلخ. وقد كان في إمكانه أن يختار أي واحدة من هذه الهويات كي يعرف نفسه أمام بنائي شيراز. لكنه اختار منها جميعاً هويته العامة الأصل: فلسطيني! إنه فلسطيني قبل كل شيء.

وعلينا أن نلحظ أن نص المقدسي نص احتكاك بامتياز، أي أنه نص يوجب توضيح الهوية في مقابل هويات الآخرين. فهو فلسطيني في مقابل: مصري أو شيرازي – فارسي. فماذا يقول لنا هذا النص؟ إنه يعلن:

أولاً: أن ثمة في وعي المقدسي إقليماً محدداً ومتميزاً يمكن مناظرته بمصر يدعى فلسطين.

ثانياً: أن المقدسي ينسب نفسه إلى هذا الإقليم جملة وطواعية، داعياً نفسه بالنسبة إليه: "فلسطيني"، على الرغم من وجود هويات أُخرى يمكنه أن ينتسب إليها.

ثالثاً: أن من الصعب الاعتقاد أن هذا الانتساب إلى هذا الإقليم كان مسألة تخص المثقف الفرد المقدسي وحده، أي أنها هوية اخترعها بذاته ولذاته. وعليه، فإنه يحق لنا الافتراض أن النخبة المثقفة في هذا البلد وقتها، أو قسماً لا بأس به منها، كانت ترى نفسها كنخبة فلسطينية، أي كنخبة منتمية إلى إقليم محدد، إلاّ إذا افترضنا أن المقدسي كان طلعاً غريباً في هذا البلد – الإقليم.

رابعاً: أنه إذا ما صح هذا فمن المستحيل أن تكون هذه النخبة لبست هذه الهوية هكذا في عزلة تامة عن الناس العاديين، ناس الشارع، في فلسطين. أي أن لنا أن نفترض أن الناس كانت، على الأرض، وفي حدود ما، ترى نفسها كمجموعة تنتمي إلى إقليم معين يدعى فلسطين، على الرغم من تعدد الولاءات والهويات المنافسة.

خامساً: أن من استمعوا إلى المقدسي لم يستغربوا هويته المدعاة ولم يتساءلوا عنها، بل أكدوها، وهذا يعني أنهم يتعاملون معها كهوية مقبولة مرتبطة بإقليم محدد.

وعليه، باختصار، فهذا النص يشير إلى وجود هوية خاصة فلسطينية، في حدود ما. صحيح أن هذه الهوية قد تكون مختلطة بهويات أُخرى أوسع أو أضيق: شامية، أو إسلامية، أو مقدسية، أو غيرها، لكنها قادرة على الإعلان عن ذاتها بوضوح، بل قادرة على أن تضع نفسها فوق جميع الهويات الأُخرى في لحظة محددة.

أكثر من هذا، فالمقدسي يبدو فخوراً بهويته، عارفاً ببعض نقاط قوتها التي فاخر بها الشيرازيين، أقصد حرفة الحجر والبناء. ونحن نعلم أن جد المقدسي كان مهندس بناء عظيماً. والمقدسي ذاته يخبرنا بأمر جده في سياق حديثه عن عكا:

> *ولم تكن على هذه الحصانة حتى زارها ابن طيلون [= ابن طولون]. وقد كان رأى صور ومنعتها واستدارة الحائط على مينائها، فأحب أن يتخذ لعكا مثل ذلك الميناء، فجمع صناع الكورة، وعرض عليهم ذلك، فقيل: لا يهتدي أحد إلى البناء في الماء في هذا الزمان. ثم ذكر له جدنا أبو بكر البناء. وقيل: إن كان عند أحد علم هذا فعنده. فكتب إلى صاحب بيت المقدس حتى أنهضه إليه. فلمّا صار إليه وذكر له ذلك، قال: هذا أمر هيّن، عليَّ بفلق الجميز الغليظة. فصفّها على وجه الماء بقدر الحصن ثم بنى عليها بالحجارة والشيد. وجعل كلما بنى خمس دوامس ربطها بأعمدة غلاظ ليشتد البناء. وجعلت الفلق كلما ثقلت نزلت حتى إذا علم أنها قد جلست على الرمل تركها حولاً كاملاً حتى أخذت قرارها، ثم عاد فبنى من حيث ترك. فلمّا بلغ البناء إلى الحائط القديم داخَله فيه وخيّطه به. ثم جعل على الباب قنطرة، فالمراكب في كل ليلة تدخل الميناء وتجر السلسلة مثل صور. قال: فدفع إليه ألف دينار سوى الخلع وغيرها، واسمه عليه مكتوب."* [4]

إذاً، فاسم جد المقدسي، أي توقيعه، كان منقوشاً على سور عكا؛ هذا السور الذي مكّن أحمد باشا الجزار، الذي جدده فيما بعد، من الصمود أمام نابليون. وقد كان المقدسي واعياً بهذا التاريخ، وواعياً بحرفة جده حين ناقش بنائي شيراز. واغتباطه بهويته يظهر في هذا النص من كتابه أيضاً:

> *وكنت يوماً في مجلس القاضي المختار أبي يحيى ابن بهرام بالبصرة فجرى ذكر مصر إلى أن سئلت: أي بلد أجلّ؟*
>
> *قلت: بلدنا.*
>
> *قيل: فأيها أطيب؟*

قلت: بلدنا.
قيل: فأيها أفضل؟
قلت: بلدنا.
قيل: فأيها أحسن؟
قلت: بلدنا.
قيل: فأيها أكثر خيرات؟
قلت: بلدنا.
قيل: فأيها أكبر؟
قلت: بلدنا.
فتعجب أهل المجلس من ذلك. وقيل: أنت رجل محصل، وقد ادعيت ما لا يقبل منك، وما مثلك إلاّ كصاحب الناقة مع الحجاج.
قلت: أمّا قولي...".[5]

وهكذا شرح لهم لماذا تكون مدينته بهذه الأهمية، مثبتاً لهم أن "ناقته – قدس فلسطين" الخاصة لها الأهمية التي يدعيها.

وعلينا أن نشير هنا إلى أن لغة المقدسي في كتابه تحمل دلائل على وضع اللهجة الفلسطينية في وقته، أي قبل ألف عام من الآن. فهو يعمد إلى استخدام كلمات من هذه اللهجة في كتابه، كما رأينا في المقتبسات السابقة (أحكيت، بلاطة، مسفنة، ثخانة، فلق، وحش). ومن خلال هذه الكلمات التي لا تزال مستخدمة حتى الآن، نستطيع أن نقول إن هذه اللهجة هي ذاتها منذ ألف عام، من حيث الجوهر.

في كل حال، نحن نعتقد أنه لا يمكن تجاهل نص المقدسي عند الحديث عن تاريخ الهوية الفلسطينية. إنه نص تأسيسي حقاً. وعلى كل من يقول بحداثة تكوين الهوية الفلسطينية أن يواجه هذا النص. صحيح أنه نص منفرد حتى الآن، لكنه نص واضح تماماً، يعكس حقائق على الأرض. وليس من قلة الحذر أو المبالغة الافتراض أن نص المقدسي كان يعكس عقيدة مثقفي القدس وفلسطين في عصره، أو جزءاً منهم على الأقل.

لكن علينا أن نص المقدسي قد لا يكون هو النص الوحيد عن الهوية الفلسطينية في المصادر الكلاسيكية العربية. ذلك بأننا، كما قلت، لم نقم بمسح شامل لهذه المصادر كي نكتشف النصوص التي تتعلق بالهوية الفلسطينية التقليدية. ولعل القيام بهذا المسح يعطينا نصوصاً غريبة ومفاجئة. ولدينا نص صغير من الطبري في "تاريخه" يجعلنا نعتقد ذلك. ففي سنة 196هـ، خلال الحروب الداخلية في فترة الصراع بين الأمين والمأمون، وقعت خلافات داخل صفوف قوات عبد الملك بن صالح، الموجودة في الجزيرة الفراتية، والمكونة من أهل الشام وأهل خراسان، أدت إلى اشتباك واسع أصيب فيه أهل الشام، الأمر الذي أدى إلى غضب عارم بينهم. فقام واحد حمصي وقال:

يا أهل حمص، الهرب أهون من العطب، والموت أهون من الذل؛ إنكم بعدتم عن بلادكم، وخرجتم من أقاليمكم، ترجون الكثرة بعد القلة والعزة بعد الذلة، ألا وفي الشر وقعتم... النفير النفير، قبل أن ينقطع السبيل، وينزل الأمر الجليل، ويفوت المطلب، ويعسر المذهب، ويبعد العمل، ويقترب الأجل." [6]

لكن رجلاً كلبياً، ومن المؤكد أنه فلسطيني كما يدل كلامه، وحيث كانت زعامة كلب في فلسطين، قام فقال:

يا معشر كلب؛ إنها الراية السوداء، والله ما ولت ولا عدلت ولا زل ناصرها، ولا ضعف وليها، وإنكم لتعرفون في مواقع سيوف أهل خراسان في رقابكم، وآثار أسنتهم في صدوركم. اعتزلوا الشر قبل أن يعظم، وتخطوه قبل أن يضرم، شامكم شامكم، داركم داركم! الموت الفلسطيني خير من العيش الجزري [يقصد الجزيرة الفراتية]. ألا وإني راجع، فمن أراد الانصراف فلينصرف معي. ثم سار وسار معه عامة أهل الشام." [7]

ليس من السهل هنا مطلقاً تجاهل جملة "الموت الفلسطيني خير من العيش الجزري." فهي تعكس إحساساً بإقليم وبهوية مرتبطة بهذا الإقليم. ومن خلال النص، يمكن استشفاف أن الكيان المميز الوحيد كإقليم في بلاد الشام إنما هو فلسطين. فالحمصي مثلاً، قام ونادى باسم حمص. أمّا الكلبي فقد قام ونادى باسم فلسطين. بل إن النص يوحي بأن اسم فلسطين كان عديلاً للشام في بعض اللحظات، بسبب شدة تبلوره كإقليم.

ومن المؤكد أن الهوية التي نتحدث عنها، والتي تفصح عنها النصوص المقدمة، كانت مخلوطة بهويات أُخرى ومتداخلة معها: إسلامية، وعربية، وشامية، وقبلية، وغيرها. لكن من الواضح أيضاً أن هذه الهوية كانت موجودة وتتفوق على غيرها في لحظات الاحتكاك والمواجهة، كما رأينا في مطارحة المقدسي للشيرازيين، وفي خطبة الفلسطيني الكلبي.

هذه الهوية كانت في جذر الهوية الفلسطينية الحديثة كما نعتقد. فالهوية التي أخذت تنبثق في أواسط القرن التاسع عشر أو قبلها، هي مجرد تحديث للهوية الكلاسيكية القديمة وتعميق لها. وهذا ما نطرحه للنقاش. ■

(*) شاعر وكاتب فلسطيني مقيم برام الله.

(1) "تاريخ هيرودوت" (دبي: منشورات المجمع الثقافي في البحرين، 2001)، ص 522.

(2) المقدسي، "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" (أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع؛ بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2003)، ص 362.

(3) المصدر نفسه، ص 68.

(4) المصدر نفسه، ص 165.

(5) المصدر نفسه، ص 167.

(6) "تاريخ الطبري"، المجلد العاشر (دار الفكر للطباعة، 1998)، ص 173.

(7) المصدر نفسه.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx